وهج الحرية

أبوسلمى
الشاعر الثائر

نبيل خالد الأغا
كاتب من فلسطين

في رونق الصبا أبحرت على متن عدة كتب ودواوين شعرية، ونهلت من نفائسها ما لذّ وطاب من النثر المؤنّق والشعر المنضّد.

وكان أستاذ اللغة العربية المربي الراحل أحمد فرح عقيلان يغرس فينا ونحن طلاب بمدرسة خان يونس الإعدادية غراس عشق لغة الضاد والتهيام بها باعتبارها اللغة الوحيدة التي اختارها الحق تبارك وتعالى لتكون لغة أبينا آدم عليه السلام ولغة القرآن الكريم ولغة أهل الجنة. وأسبغ علينا من محفوظاته الكثير الكثير من كنوزها نثراً وشعراً وحكمة.

وكان قد أدرج المبارزات الشعرية في صلب النشاطات المدرسية الذهنية التي يتبارى فيها فريقان من الطلاب، وكنا نضطر لحفظ الأبيات ذوات القافية الصعبة ونشهرها في وجه الخصم لنرغمه على الاستسلام بـ «القافية القاضية»!

وكنا نبدأ المباراة أحياناً ببيت الشعر الآتي:

انْشُرْ على لَهَبِ القصيدِ شكْوى العبيد إلى العبيد

وعلمنا فيما بعد أن قائل هذا البيت هو الشاعر الفلسطيني «أبوسلمى».

وأحياناً أخرى نفتتح المباراة ببيت الشعر الموغل في الغرور لشاعر يقول:

العُرْبُ أشْرَفُ أمة مَنْ شَكَّ في قولي كَفَرْ!

ولما اشتد الساعد قرأنا في دفتر المجد والخلود سيرة حياة شاعرنا المكنّى بـ «أبي سلمى» واسمه الحقيقي عبدالكريم سعيد الكرمي «المشرد» الذي امتطى صهوة القافية المجنحة منافحاً عن عدالة قضية وطنه فلسطين، وكرامة أمته العربية هاتفاً من أعماق صدره الملتهب بنار الثأر والثورة:

نَحْنُ إنْ لم نَحْترقْ، كيفَ السّنا
يَمْلأُ الدُّنيا ويهدي كُلّ رَكْبِ؟

إشراقة الحياة

ينتسب شاعرنا إلى مدينة «طول كرم» إحدى مدائن فلسطين المسكونة بالخير والأنفة والإبداع، وتشكل زاوية في مثلث البطولة الذي يشملها ومدينتَيْ نابلس وجنين، وهي عاصمة «قضاء بني صعب» الذي استحدثه العثمانيون إبان حكمهم لفلسطين.

وأصل تسمية المدينة - كما يرى المؤرخ مصطفى مراد الدباغ - هو «طور كرم» فالطور هو «الجبل» و«الكرم» هو «مكان العنب» الذي تشتهر به المنطقة، ومع مرور الزمن تحول «الطور» إلى «طول» لسهولة النطق به.

وتمتاز المدينة وقضاؤها بوفرة المثقفين الذين أثروا الحياة الثقافية والتعليمية في فلسطين وغيرها.[1]

وحسبنا أن نشير تحديداً إلى أسرة «الكرمي» التي أنجبت شخصيات مرموقة تميزت بالأدب والعلم والدين، وفي طليعتها شاعرنا الذي يُعتبر أحد رواد شعر النضال الفلسطيني والعربي على السواء، وشيخ شعراء فلسطين بلا منازع، وقد ولد في طول كرم ذات يوم تموزي في العام 1909م.

وقبيل أن ندلف إلى أعماق دورته الحياتية التي امتدت ثلاثة وسبعين عاماً نود رصد بعض الخطوط الرئيسة لأبرز ثلاثة من «الكرميين» إضافة إلى صاحب السيرة.

الشيخ سعيد الكرمي (1852-1935)

والد الأشقاء الثلاثة: أحمد شاكر، وحسن، وعبدالكريم (أبي سلمى). أنهى دراسته بفلسطين، وحصل على العالمية الأزهرية في مصر، وعمل مفتشاً بوزارة المعارف، ومن ثم مفتياً للقضاء، وشارك في الحركة الوطنية أواخر العهد التركي، وبعد الحرب العالمية الأولى اشترك في تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق عام 1919، وبعدئذ انتقل إلى إمارة شرقي الأردن وعُيّن قاضياً للقضاة قبيل عودته إلى مسقط رأسه.

وإضافة إلى ذلك فهو ضليع بالتصوف والتاريخ ويتمتع بحظوة لدى عامة الناس مثلما كانت له مكانة سامقة عند كبار المسؤولين، وقد اغتنى كثيراً عندما تتلمذ على الأفغاني ومحمد عبده.[2]

(أحمد شاكر) الكرمي (1894-1927)

شقيق أبي سلمى، أديب وكاتب، وصحافي، التحق بالأزهر الشريف، عاش جلّ حياته في دمشق، عمل محرراً في جريدة «ألف باء»، وكتب مقالات هادفة بتوقيع «قدامة»، وأثبت جدارته في الأوساط الأدبية الدمشقية، تولى تحرير مجلة «الفيحاء» وانكب على دراسة اللغة الإنكليزية فأتقنها، وترجم عدة روايات لأدباء إنكليز. وتميز بجملاته على الأدب العربي التقليدي، والدعوة إلى أدب عربي جديد «يغمس ريشته في الطبيعة».

حسن الكرمي (1905-2007)

أحد رواد اللغة العربية ومؤلفي المعاجم، كاتب وشاعر، ولد في طول كرم، وبعد نيله شهادة الكلية الإنكليزية بالقدس عمل مدرساً في مدينة الرملة وفي الكلية العربية بالقدس.

وفي العام 1938 ذهب إلى لندن في بعثة دراسية وتخصص في أصول التربية، وبعد عودته شغل منصباً رفيعاً في إدارة المعارف الفلسطينية. تزوج من سيدة سورية وأنجب منها زياداً وسهام وغادة.

التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (B.B.C)، وأعد سلسلة دروس لتعليم الإنكليزية فيها، وأطلق برنامجه المشهور «قول على قول» الذي أمضى ثلاثين عاماً في تقديمه، ونشرت مواده في أكثر من ثلاثة عشر مجلداً. وقد استقطب برنامجه ملايين المستمعين على امتداد الوطن

تمتاز طولكرم وقضاؤها بوفرة المثقفين الذين أثْروا الحياة الثقافية والتعليمية بفلسطين وغيرها

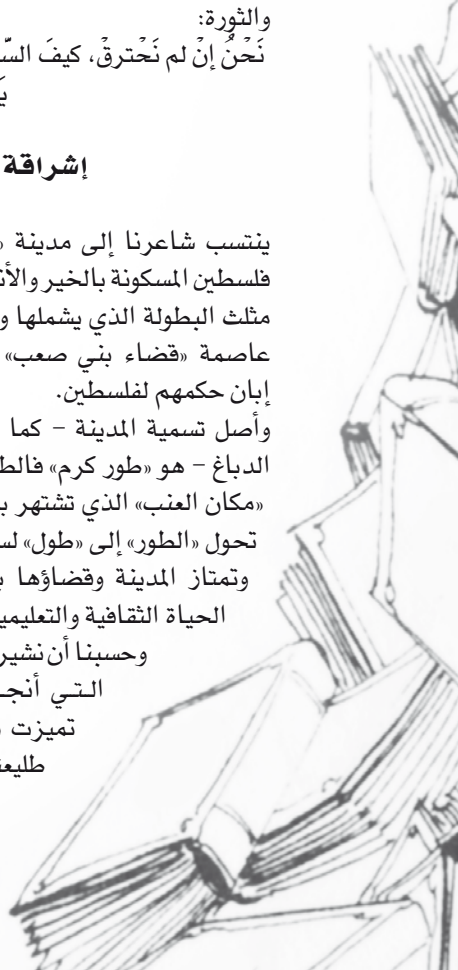

العربي وخارجه، وحرص بعض الملوك والرؤساء العرب على متابعته وإقامة علاقات شخصية مع مقدِّمه، ومنهم الرئيس جمال عبدالناصر، والملك فيصل بن عبدالعزيز، والحبيب بورقيبة والشيخ زايد بن سلطان، وغيرهم.

ترعرع عبدالكريم في كنف والده الذي أغدق عليه حباً مضاعفاً، ورعاية خاصة، وأهداه قصيدة مشحونة بالنصائح والتوجيهات وهو لما يزل في السابعة من عمره، كما شجعه على حضور مجالس العلم التي كان يعقدها في بيته، والتي تركت آثارها الإيجابية في تفتح براعم نبوغه، واتساع دائرة مداركه الحياتية.

وحرص الوالد على تعليم ابنه في مدرسة التجهيز الأولى (مكتب عنبر) الدمشقية ذات المكانة التعليمية الراقية يومئذ. وفيها هفا قلبه إلى فتاة حسناء اسمها (سلمى). فأطلق عنان حبه وتهيامه بها وهو في العشرين من شبابه الغض، فسكب مشاعره في قصيدة غزلية مطلعها:

سلمى انظري نحوي فقلبي مُعَلّق
لمّا يُشيرُ إلى طَرْفِكِ أطْرُقُ

ولما تناهى الأمر إلى أستاذه محمد الداودي أعجب به. وأطلق عليه لقب «أبي سلمى»، وصار زملاؤه بالمدرسة ينادونه بـ «أبي سلمى» وحبيب سلمى، وكان يغضب من هذا الاسم في البداية، ولكنه أصبح لقبه الأدبي فيما بعد، فلصقت هذه الكنية به ودحرت اسمه الأول.[3]

وبرز من بين أفضال مدرسة عنبر التي خرَّجت العديد من الشعراء والأدباء السوريين والعرب اهتمام بتدريس اللغة الفرنسية وآدابها، فتزود أبوسلمى من معينها زاداً وفيراً واستقى من بدائع فيكتور هيغو ولامارتين وغيرهما من رواد المدرسة الفرنسية الرومانسية.

ومن المفارقات اللطيفة أن زوجة أبي سلمى «رقية توفيق حقي» - ابنة رئيس بلدية عكا ورئيسة الاتحاد النسائي الفلسطيني فيما بعد - كانت تتقن اللغة الفرنسية إذ تخرجت في مدرسة راهبات الناصرة بحيفا، وقد ساعدهما ذلك القاسم المشترك في تبحرهما بالثقافة الفرنسية.

هذا وقد ارتبط أبوسلمى بعلاقات وطيدة مع بعض الأدباء المصريين وفي مقدمتهم الأديب المعروف إبراهيم عبدالقادر المازني الذي تعاطف مع القضية الفلسطينية بشكل لافت، ونشر له عدداً من القصائد في مجلة «الرسالة» المصرية العريقة.

الشاعر قاطرة شعبه يُدافع بالكلمة المقاتِلَة عن الحرية.. لكن قطرة دم مجاهد أقْرب إلى الله من نداء الشعر

رحلة مشحونة بالعطاء

بعد حصوله على شهادة البكالوريا السورية (الثانوية العامة) في العام 1927، قصد أبوسلمى العاصمة الفلسطينية وعمل معلماً في المدرسة العمرية في الوقت الذي انتسب فيه لمعهد الحقوق ونال شهادة المحاماة.

وفي تلك الأثناء تعرَّض لواقعة مفاجئة، ذلك أن مجلة الرسالة نشرت له قصيدة هاجم فيها سلطة الانتداب لعزمها تشييد قصر للمندوب السامي البريطاني على قمة جبل (المكبّر) الذي اكتسب اسمه في أثناء زيارة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبيت المقدس، وصلى فيه مع جماهير المصلين المسلمين. فاستشاطت السلطة غضباً على الشاعر، وأبلغته بقرار فصله من العمل!

ولما علم صديقه الشاعر إبراهيم طوقان(1905-1941) بالموقف ضمه إلى سلك الإذاعة الفلسطينية وكان يومئذ مديراً لبرامجها العربية، وسارا معاً على «طريق الحياة والشعر» وعندما توفي طوقان رثاه الكرمي بقصيدة حزينة تتدفق من ثناياها الدموع الساخنة.

وبعد فترة استقال من عمله الإذاعي، وافتتح مكتباً لمزاولة المحاماة في مدينة حيفا عام 1943م، دافع من خلاله عن بعض المناضلين الفلسطينيين الذين تعرضوا لملاحقة السلطات البريطانية على خلفية مشاركتهم في ثورة فلسطين الكبرى عام 1936 . واستمر في ممارسة نشاطه القانوني حتى باغتته نكبة فلسطين الكبرى في العام 1948 . فاضطر للنزوح إلى دمشق، فعمل في المحاماة والتعليم، إضافة إلى نشاطاته الثقافية المختلفة داخل سورية وخارجها، حيث شارك في مؤتمرات عربية وآسيوية وإفريقية. وكان ضمن أعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر الأول للكتاب والصحافيين الفلسطينيين الذي عقد في غزة في العام 1966، وقد انتخب فيما بعد رئيساً للاتحاد.

وتقديراً لأبي سلمى الذي ناضل من أجل وطنه ما يربو على نصف قرن بالكلمة الثائرة المحرضة على الفعل الثوري، وبالموقف الملتزم وطنياً وقومياً وأممياً، منحه اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا في العام 1978م جائزة اللوتس السنوية للآداب التي لا يحظى بها سوى كبار المبدعين من الكتاب والشعراء المناضلين العالميين. وبهذه المناسبة أقامت له منظمة التحرير الفلسطينية احتفالية تكريمية ضخمة في العاشر من ديسمبر/كانون الأول 1978 في جامعة بيروت العربية رعاها الرئيس الراحل الشهيد ياسر عرفات الذي قال وهو يحتضن أبا سلمى: «أخي وأستاذي ومعلمي أبوسلمى، إن يوم تكريمك هذا هو تكريم لفلسطين من خلالك».

توفي الكرمي في الولايات المتحدة الأميركية في الحادي عشر من أكتوبر/تشرين الأول في العام 1980 في أثناء زيارته لابنه الوحيد الدكتور سعيد، ونُقِل جثمانه بحسب وصيته إلى دمشق. ودفن في مقبرة الشهداء بمخيم اليرموك، بعد أن جرت له مراسم وداع قلَّ مثيلها في

العاصمة السورية حتى ذلك الحين.
جدير بالذكر أنه مُنح أعلى وسام فلسطيني هو «درع الثورة الفلسطينية» تقديراً للدور الريادي الذي لعبه في إبراز الثقافة الفلسطينية، ولإبداعه على مدى نصف قرن خدمة لوطنه وشعبه وقضيته. كما قررت المنظمة تحويل منزله بدمشق إلى متحف يضم آثاره ولمساته ومحتويات منزله.
كما مُنح اسمه من بعد وفاته «وسام القدس للثقافة والفنون» في العام 1990 . هذا وقد أثرى الشاعر الكرمي المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات الشعرية هي:
المشرد (دمشق 1953)، أغنيات بلادي (دمشق 1959)، أغاني الأطفال (دمشق 1964)، من فلسطين ريشتي (بيروت 1971)، ديوان أبي سلمى (الأعمال الكاملة - بيروت 1987).
وله ثلاثة أعمال نثرية هي:
كفاح عرب فلسطين (دمشق 1964)، أحمد شاكر الكرمي (دمشق 1964)، الشيخ سعيد الكرمي (دمشق 1963).

أنموذج من نثره

قبيل ولوجنا إلى رياض شعره الذي لم يكفّ عن تغريده سواء في ربوع وطنه، أم في أصقاع منافيه، لنتعرفْ أولاً إلى أسلوبه النثري المفعم بالوطنية من خلال بضعة أسطر نقتطفها من الكلمة البليغة التي ألقاها أبوسلمى في مهرجان تكريمه بجامعة بيروت:
«ما أتفه الفكر الذي لا يدافع عن الحق والعدل. إن الشعر الذي ينبثق من تربة الوطن ويترعرع عليها، لا يمكن أن ينجح، وكيف ينمو إذا كان مزروعاً بالفضاء بلا جذور؟! أية قيمة للشاعر إذا لم يجلُ شعره صور وطنه الجريح؟ أية قيمة للشاعر إذا لم يكن فرداً من مجتمعه يضيء في شعره كفاح شعبه وجهد فلاحيه وعماله ومآسي مشرديه وآمال لاجئيه؟ أية قيمة للشعر إذا كان الشاعر لا يصور فيه أطفال بلاده وقد علقت بشعورهم أطياب المروج من أوطانهم؟ أية قيمة للشعر إذا كان الشاعر لا يصف صبايا الحي وقد حملن سمرة التربة الفلسطينية، وتأوُّد ريحانها؟ وما أغلى الشعر الذي تترقرق به دموع الأيتام ودماء الشهداء وعرق المجاهدين! إن الشاعر هو قاطرة شعبه ورائد أهله، والرائد يخوض معهم معركة الحياة. يهدر دمه قبل أن تهدر كلمته، يدافع بالكلمة المقاتلة عن الحرية والوطن والشعب كما يدافع الفارس بسيفه عن الحرية والوطن والشعب، ومع ذلك فإن قطرة دم مجاهد أقرب إلى الله من نداء الشعر».

جولة في عالمه الشعري

عبدالكريم الكرمي أبوسلمى زيتونة فلسطين شاعر القضية الوطنية رائد الشعر الفلسطيني المقاوم.. أسماء وألقاب عديدة لمبدع واحد، حفر اسمه في ديوان الشعر العربي والفلسطيني بكفاءة واقتدار.
نراه مرة يتحسر ومرة يتألم أو يتأمل، ومرات أخرى يصرخ، ينوح، يبكي، يحرض، ويحلم، وفي النهاية تمطر غمائم شعره التفاؤل الواعد بالخصب والنماء.
استطاع شاعرنا أن يبلور شخصيته الفنية بوضوح كامل، وحفل شعره بصور المأساة الفلسطينية إلى جانب المقاومة المشروعة، وشعره كله يتسم بالوضوح والمباشرة، والخيال المبتكر. تناول فيه مجالات حياتية شتى من الوطني إلى الإنساني، إلى الاجتماعي، كذلك نظم في الرثاء والأناشيد والحب والغزل وغير ذلك من فنون الشعر.
«وقد طور الكرمي شعره حين كان يستقي صوره الشعرية من الطبيعة الفلسطينية، ونفسية الشعب، مطوعاً في سياق ذلك عمود الشعر لإيصال المضمون الذي يريد، وذلك لم يمنعه في قصائده السياسية من الاستعانة بصور الخطاب من نداء أو تعجب أو استفهام لإحداث شيء ما، على حساب التأثير المباشر في النفس» [4].
ونراه في إحدى قصائده يخاطب رواد الشعر في الوطن العربي، فيدعوهم للنهوض بمسؤولياتهم الوطنية والإنسانية ليشاركوا في الذود عن حقوق الشعب الفلسطيني:

أيها الحاملونَ ألْويةَ الشِّعْـ ـرِ تهاوى السِّتارُ والتمثيلُ
إنّ تشريدَ شَعْبنا يُخَضِّبُ الشِّعْـ ـرَ وتدمى حروفهُ والنصولُ
فاهْبطوا الأَتْرابطوا في البروج الـ ـبيضِ فالشَّعْبُ كُلُّهُ مسؤولُ

عاش شاعرنا أبوسلمى هموم شعبه قبيل النكبة، وتجرَّع مرارة التشرد بعد النكبة، وواكب المأساة مرحلة بعد مرحلة، وسجَّل تفاصيل الأحداث، وتصدَّى لمفاهيم الثورة والجهاد. وتغنّى بحب الوطن، والتصق شعره بالأرض وما فوقها، وتحولت فلسطين عنده إلى رمز، لأنها مرتبطة بالصراع العربي ضد الاستعمار، وبالهموم العربية كلها. ففلسطين عند أبي سلمى - كما يرى صديقنا الباحث حسني أدهم جرار- همٌّ خاص، لكنه همٌّ عربي، وهو يعيش هذه القضية بكل جوارحه ويريد أن يعيشها كل عربي بجوارحه، وهكذا تأخذ فلسطين حجمها الحقيقي، وتظل هماً وطنياً [5].
ورفع أبوسلمى عقيرته إبان ثورة 36 فاضحاً جرائم الإنكليز أصحاب وعد بلفور الذين ينكلون بشعبه المأزوم. مستنهضاً بحدة همم العرب ودول العالم الحر لنجدته وغوثه. ووضع حد لمآسيه وأحزانه:

هَلْ تَشْهدونَ محاكمَ الـتّـفْتيش في العَصْرِ الجدَيد
قوموا انظُروا الأهْلين بيـن الوَعْدِ ضاعوا والوَعيدِ
ما بيْنَ مُلقى في السُّجـو نِ وبيْنَ مَنْـفيٍّ شـريـدِ
قوموا انظروا الوَطن الذّبيـ ـحَ من الوَريد إلى الوريدِ
تـتـزاحـمُ الأجْيـالُ دا مية الخُطى حَوْلَ اللُّحودِ

وردت هذه الأبيات الخمسة في ثنايا قصيدته المشهورة «لهب القصيد» ذات الأربعة والستين بيتاً والتي تناقلتها الألسن في فلسطين وخارجها، وهي كما يقول الشاعر

أحب الطالب عبدالكريم الكرمي فتاة دمشقية تُدْعى «سلمى» فأطلق عليه أستاذه لقب «أبوسلمى» فأضحى لقبه الأدبي

تعتبر «لهب القصيد» من أشهر قصائده قبل النكبة حيث شاعت في فلسطين ثم امتد لهيبها إلى العالم العربي

المعروف أحمد دحبور: «قصيدة حديثة حتى وهي في بهائها الكلاسيكي من حيث هي نشيد عام قادر على أن يَشيع في المتلقي بوصفه زفرة شخصية، ولعل هذا ما يفسر صمود هذه القصيدة للزمن بعد عشرات السنين. وإذا صدقت نبوءة المتنبي بتحويل الزمان إلى أحد رواة قصائده فهذا هو شأن الشعر العظيم»(6).

هذا وكان الشاعر قد بدأ قصيدته الخالدة بقوله:

أنْشُرْ على لَهَبِ القصيد ... شكوى العبيد إلى العبيد
شكوى يُرَدِّدُها الزَّما ... نُ غداً إلى أبد الأبيد
والثورة الحَمْراء نُطْـ ... ـعِمُها الجسومَ مع الكبود
أيَّانَ نسألُ نارَها ... فَتُجيبنا: هل من مزيد؟!

المجد للشعوب

في اليوم التاسع والعشرين من شهر نوفمبر عام 1947، أقرت هيئة الأمم المتحدة مبدأ تقسيم فلسطين بين العرب واليهود.

وفي قصيدته التي حملت عنوان: «وطني يوم التقسيم» يقول الكرمي مؤكداً عروبة شعبه وانتصاره على أعدائه:

وطني! عِشْ أبا العُروبةِ واسْلَمْ
وطني.. حِلْيةَ الزّمانِ تبسّمْ
قَسّموا قَلْبَكَ المُوَشَّحَ بالنّو
رِ، وتأبى العُلى له أن يُقسّمْ
قدْ نسَجْنا ثِيابَ عُرْسِكَ حُمْراً
إنها من قلوبنا تَتَرَنّمْ

ويقول فاضحاً عصبة الأمم المتحدة التي تجيز وتحلل الظلم إذا كان منها على الآخرين، بينما تحرّمه إن حاول غيرها أن يلحقه بها وبمَن يشايعونها:

قُمْ تأمل تر الشُّعوبَ يَجُرّو ... نَ قُيوداً من الحديد المثلّمْ
بينهم عُصْبةُ الأراقمِ تَسْعى ... كُلّما غابَ أرْقمٌ لاحَ أرقمْ
حَرَّمُوا الظلْمَ بَيْنَهم واستراحوا ... ولدينا يُحَلّلون المُحَرّمْ
ثم قالوا: بَيْعُ العَبيدِ حَرامٌ ... إنّ بَيْعَ الأحْرارِ أنكى وأظلم

المتأمل في قصيدة «حَمَام الوادي» يدرك للوهلة الأولى أن أبا سلمى يتقمص شخصية الحمام في نواحه على عشه الضائع الذي أبصر نور الحياة من خلاله. واستظل في ظله قبل أن يلفحه صهد الهجير، ويقذفه القدر في أتون الغربة والضياع:

وَدّعْ ظلالك يا حَمَامَ الوادي
ألْوىَ الزمانُ على غُصْنِكَ الميّادِ
كان الرسولُ إليكَ غَلْبَ الهوى يخْـ
ـتالُ فوقَ رُبىً وفوقَ وهادِ
حتى إذا وافى الدِّيارَ تَرقْرَقت
عَبَرَاتُهُ وروى حديثَ فؤاد
يا جيرة الوادي الحزين تحيةً
حَمْراءَ أنْطَقُها دَمُ الأكبادِ

لكن الشاعر في الأبيات الأخيرة من القصيدة يهزأ بمن يمتلكون ناصية القرار في الدول العربية ويتقاعسون عن نصرة إخوانهم بعكس أجدادهم الأباة، إنهم المتخاذلون الذين شاركوا – بصورة أو بأخرى – في مصادرة الوطن:

لَوْ كان في تلك النفوس حَمِيَّةٌ
عَرَبيّةٌ شَدّت على الأصْفادِ
لو تسمَعونَ صدى القُبورِ وجَدْتم
جَنَباتَها تَبْكي على الأجْدادِ
ومشى الزَّمانُ عليهم حتى إذا
ماتَ الإباءُ مَشَى على الأحْفادِ

ونرى الشاعر المتيم بعشق وطنه، المكتوي بلهيب فراقه يبوح بتهيامه، ويوجِّه نداءه المضمَّخ بالعطور إلى محبوبته فلسطين في قصيدة «أحبك أكثر». وبحسب معادلته التاريخية فالشعب يبقى هو الأمل المرتجى، وسوف تبرز صورة الفارس البطل حتى ليغدو النضال قميناً للتعلق بالوطن:

يا فلسطينُ ولا أحْلى ولا أغْلى وأطْهَرْ
كلّما حارَبْتُ من أجْلِك أحْبَبْتُكَ أكْثرْ
أيُّ تُرْبٍ غير هذا التُّرْبِ من مِسْكَ وعَنْبرْ

مرارة الاغتراب

بدت ظاهرة الحنين إلى الوطن تقض مضجع «المشرَّد» إضافة إلى مرارة مستجدة مبعثها حنين إلى وطن مستلب بصورة «أبدية» حسب المزاعم التوراتية. وليس مستلباً بصورة زمنية محددة النهاية. وهذا ما يضاعف حجم المرارة والحنين.

بعد مرور أقل من عام على هزيمة يونيو/حزيران 1967. أنشد أبوسلمى في القاهرة قصيدته المشهورة «من فلسطين ريشتي»، واعتبر فيها أن الهزيمة التي حلَّت بالعرب أدت إلى انطلاق مرحلة جديدة في النضال ضد الصهيونية وأعوانها. واستجلى إحباطات الواقع العربي البائس مطالباً حاملي ألوية العار بالانسحاب من حومة الوغى، وتسليم زمام القيادة الفاعلة للشعب، مؤكداً مثنى وثلاث أن الكفاح المسلح هو السبيل الأوحد لاسترداد الحقوق المستلبة.

هذه المعاني وغيرها تحتويها الملحمة ذات الستة والخمسين بيتاً، مؤكداً في مستهلها:

مِنْ فلسطينَ ريشَتي وَبَياني
فَعلى الخُلْدِ والهوَىَ يَدْرُجانِ
ريشَتي في يدي أخوضُ عُبابَ الـ
ـهَوى طَلْقَ الجناحِ ثَبْتَ الجِنانِ

أيُّها الحاملون ألْويةَ العا
رِ! تخلَّوا عنْ حَومةِ المَيْدانِ
سَلِّموا الشّعْبَ أمْرهُ واستريحوا
يا حُماةَ الأصْنامِ والأوْثانِ

الغربة طال أمدها، وغابت عن عيون الناظرين نهايتها، وتسرب شيء من اليأس والقنوط من بزوغ فجر العودة المرتقبة، والصورة تتبدد ملامحها شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن.. ووجدان شاعرنا الذي اهترأ من حرقة الشوق يتحول إلى أنغام حزينة تزيد من كمادة الألم ولوعته، متسائلاً عما حلَّ بوطنه وأهله: هل ما برح عربي الملامح والقسمات.. أم أصابته حمى التهويد والتغريب؟!
ويتساءل بخوف وفزع:
كُلَّما قُلْتُ: أطَلَّ الفَجْرُ غابا
أتُرى تغْدو فلسطينُ سَرابا؟!
وإذا الدَّمْعُ روى عنها الهوى
وجَلا صورتها ذابَتْ وذابا
مَسَحَ الأهْلُ رُسوماتِ الخُطى
لم نَجِدْ خلْفَ المُنى إلا تُرابا
جَثم الأعْداءُ ما حولَ الحِمى
وعدا أهْلي على أهْلي ذِئابا!

ومرة أخرى يتنزى الشاعر ألماً على المتخاذلين الذين نكصوا على أعقابهم تلاحقهم لعنة التاريخ لاستسلامهم الذليل لأعدائهم تحت راية السلام المزيف، وتوقيعهم لاتفاقيات لا قِبَل لشعوبهم بها وفي مقدمتها اتفاقية كامب ديفيد. وحملَ أبوسلمى حملته على الرئيس الراحل أنور السادات الذي وقَّع على تلك الاتفاقية المهينة، وقد وردت هذه المعاني وسواها في «قصيدة التحدي» التي انفرد الدكتور مصطفى الفار بنشرها في كتابه.[7]
وفي القصيدة التي ألقاها الشاعر في مهرجان تكريمه ببغداد تضمينات من داليَّتَيْ كل من أبي تمام والمتنبي أجمل ما يكون التضمين، وفي أبياتها الخمسة الأخيرة يخاطب المتنبي صائحاً من أعمق أعماقه:
يا أبا الطَيِّبِ المُضَمَّخِ بالنَّا
ريخ قُمْ وادْعُ مِنْ وراءِ الحُدودِ
ألْهِبِ الشّامَ والعِراقَ ومِصْراً
وامْحُ بالنّارِ ما لها من حُدودِ
إنَّ وَضْعَ النَّدى بديلاً من السّيـ
ـفِ يَضُرّ الحِمى وبالشَّعْبِ يُودي
لا تزالُ السُّيوفُ «أصْدقَ أنبا
ءً» كما جاء في أعَزِّ القصيدِ
«عِشْ عَزيزاً أوْمُتْ وأنْتَ كريمٌ
بَيْنَ طَعْنِ القنا وَخَفْقِ البُنود»

وهنا نصل إلى القصيدة «الأم» «سنعود» ولعلها الأشهر في ديوان الشعر الفلسطيني التي ارتبطت ذاكرته بالنكبة الكبرى، فعنوانها يوحي بحتمية الانتصار وأوبة اللاجئين إلى ديارهم:
خَلَعْتُ على مَلاعبها شَبابي
وأحْلامي على خُضْرِ الرَّوابي
وَلي في كُلِّ مُنْعَطفٍ لِقاءٌ
مُوشّى بالسَّلام وبالعِتابِ
وما رَوَتِ المروجُ سوى غنائي
وما رَوَتِ الكرومُ سوى شرابي

وتتعاظم شكوك أبي سلمى وهو يبصر أمام ناظريه عظم النوائب المتتالية على طريق العودة المرتقبة، فلا يرى مندوحة من أن يهتف في حرقة ولوعة وتفجُّع:
سَرِّحوا الطَّرْفَ هَلْ هنالِكَ في الرّمـ
ـل بقايا أسنَّةٍ ورماحِ؟
هل فلسطينُ لا تزال بلادي
أمْ مَحاها من البسيطةِ ماحِ؟

وبعد.. فهل يستطيع المرء بعد كل هذا النواح المفجع أن يلوم شاعرنا المعذَّب على هذه الحال وهو الذي حمل معه ساعة نزوحه مفاتيح بيته ومكتبه في حيفا عام 1948 على أمل العودة القريبة إليها بعد أسبوع أو أسبوعين كما أعلن يومئذ حماة الديار الأشاوس؟!

أبوسلمى عاشقاً

احتل الغزل قسطاً وافراً في حياة أبي سلمى الشبابية حتى الشيخوخة حيث ظل غزله ناعماً هامساً يحفل بالكثير من الصور الشعرية الحسية لمحبوبته: الوجنات، القدّ، العيون النجلاء، إلى جانب عناصر الطبيعة الجميلة: نسيم الربى، الغدير، الفجر. وبرغم احتساب أبي سلمى في قائمة الشعراء التقليديين إلا أنه سبق الشعراء المحدثين إلى مماهاة الحبيبة مع الوطن.
ومن بين قصائده البديعة المرتبطة بغزله المتأخر قصيدة: «يوم منع التجول» حيث وقع في دمشق انقلاب عسكري وعلى إثره تم الإعلان عن منع التجول في الشوارع فأنشد أبوسلمى:
لَيْتني كُنْتُ عِنْدها   يَومَ مَنْعِ التَجَوُّلِ
حيثُ نَطْوي نَهارَنا   والدُّجى في تبتُّلِ

وشاعرنا صريح في التعبير عن عاطفته بشكل عام، لنسمعه يقول عن حبيبته:
تُسائِلُ كَيْفَ عَرَفْتَ النَّسيبْ
ومِمَّنْ تَعَلَّمْتَ شِعْرَ الغَزَلْ؟
تعلّمْتُهُ من شذا وَجْنَتَيْك
إذا ما تَفَتَّحَ زَهْرُ الأملْ

ونراه في قصيدة «قلبي الجناح» يذكر فلسطين السليبة والمباحة ذلك ساعة وداعه لحبيبته:
ماذا تقولين؟ إلى المُلْتقى
هذا دَمي، مِثْلَ بلادي مُباحْ!

في قصيدة «من فلسطين ريشتي» أكّد مَثْنى وثُلاث أن الكفاح المسلَّح هو السبيلُ الأوْحَدُ لاسْتِرْداد الحقوق المُسْتَلَبَة

هذا وقد ارتبط الشاعران الخالدان إبراهيم طوقان وأبو سلمى برباط متين من الصداقة الممزوجة بالمرح وكانا يتبادلان قصائد الغزل المبتذل والمكشوف وغير المدوّن على القراطيس، لكنه متداول على ألسنة الناس، وكثيراً ما يعجز الرواة عن التمييز بين ما كتبه إبراهيم وما كتبه عبدالكريم.

يقول الدكتور عبدالقادر ياسين مفصلاً: «بالرغم من أن وطنيات أبي سلمى أقرب إلى الخطابة والمباشرة لاعتبارات الشعبية والتحريض، إلا أن غزلياته تظل أرق وأرقى شكلاً.

هذا على الرغم من أنه أخفى الكثير من هذه القصائد، ورفض تضمينها أياً من دواوينه أو المجلد الذي احتوى أعماله الكاملة» [8].

ويؤكد هذه المقولة طوقان نفسه في قصيدة له بعنوان «عاش كلانا بالمنى» يتحدث فيها عن تجربتهما المشتركة في عالم الحب الذي يقتاد الفتى وقلبه أعمى حتى إذا رفعه إلى قمة الفرح والنشوة قذف به إلى الأسفل محطماً آماله وأحلامه:

صَحَّ الذي جَرَّبْتُهُ عند (أبي سلمى)
الحبُّ يقْتادُ الفتى وقلْبُهُ أعْمَى
يَسْمو بِهِ حتى إذا بوَّأهُ النَّجْمَا
رَمَى به من حَالِقٍ يَحْطِمُهُ حَطْما[9]

وفي قصيدة أخرى أطلق عليه طوقان لقب «رسول الهوى» قائلاً له:

يا رسولَ الهوى صَحَابَتُك العُشَّاق طُرّا وَحِزْبُكَ الأرامُ
شِيعةٌ لو حَشَدْتَ يوماً قُواها هَلَكَ الكاشِحونَ واللوّامُ

أبوسلمى راثياً

تمتاز قصائد الرثاء عند أبي سلمى بعمق تعبيرها، وترجمتها لحالات الحزن التي ألَمَّت به عند فَقْدِ حبيب، أو موت صديق، أو استشهاد فدائي.

وخلال مسيرته الحياتية رثى العديد من الشخصيات الفاعلة من ضمنهم: الشيخ عزالدين القسام، والشيخ فرحان السعدي، والشهيدة رجاء أبو عماشة، والمناضل عوني عبدالهادي وغيرهم.

إضافة إلى رثائه المؤثر لصديقه إبراهيم طوقان حيث شكَّلا في أثناء حياتهما مع الشاعر جلال زريق ثلاثياً ظريفاً في الحياة والشعر.

أيها المشرد المسكون بعشق الوطن: ستبقى مسيرتك الشجاعة منارة هدى للصاعدين إلى الذُرى

يقول الكرمي مخاطباً طيف صَفيِّه الذي توارى في أعماق الثرى مسرعاً وكأنه يسعى لنيل المجد والخلود:

عَجِلْتَ علينا وأنْتَ الصَّبورُ
فهلْ ضِقْتَ ذَرْعاً بِحَمْلِ الأذى
وكنتَ تغصّ بحلو الشَّراب
فكيفَ اسْتَسَغْتَ مَذاقَ الرّدى
سَعيْتَ إلى وِرْدِهِ مُسْرِعاً
كأنَّكَ تسعَى لحَمْلِ العُلى
فواحسرتا للشباب القشيب
يُوَسَّدُ بعدَ الحشا في الثرى!

ونختم هذه الجولة الرثائية برثائه للشيخ الشهيد فرحان السعدي الثائر الفلسطيني ذي السبعين عاماً الذي حكمت عليه «العدالة» البريطانية بالإعدام شنقاً في شهر رمضان المبارك، فاعتلى منصة الشهادة بإيمان ويقين ضارباً المثل الأعلى في الجهاد والفداء من أجل حرية وطنه، وقد شعر الشباب والشّيب بالخجل من هول ما رأت عيونهم من قسوة قلوب المستعمرين:

قوموا انظروا «فرحان» فوق جبينه أثرُ السّجود
يَمْشي إلى حَبْلِ الشّهادة صائماً مَشْيَ الأسود
سبعون عاماً في سبيل الله والحقِّ التليد
خَجِلَ الشَّبابُ من المشيبِ بل السِّنونُ من العُقود

يا أبا سلمى.. أيها «المشرد» المحزون أبداً، أيها المدثر ببردة الوطن المعنّى.. أشهد أنك لم تطأطئ هامتك كما طأطأناها.. ولم تساوم أو تهادن كما ساومنا وهادنّا، وسوف تبقى مسيرتك الشجاعة منارة هدى ونور للسائرين الشرفاء من أبناء الفردوس الفلسطيني الأغلى.

لكن.. وألف ألف آه من هذه الـ «لكن»!

لكنّ الحسرة يا أباسلمى على تباعد أمل العودة تفتّت أكبادنا.. وتطعن كبرياءنا.. وتصفع وجوهنا.. ونخاطبك ببيتك الشعري الذي قلت فيه:

كُلَّما قُلْتُ أطَلَّ الفَجْرُ غابا أترى تغدو فلسطين سَرابا؟!

أزاهير الوفاء

● إن شعرك كالعطر، أرجُه يُثني عليه، ويهدي إليه، حزن شعرك على فلسطين حزن هادئ وجيع، إنه حزن الثاكلات، لا حزن النائحات، جمال شعرك في حزنه، إنه لا يلطم الصدور، ولا يبالغ في الصراخ، بل هو حزن هادئ، لأنه عميق ومحبب، لأنه صادق، وسريع العبور إلى الضمائر لأنه نابع من ضمير. إنّ جراحك في شعرك هي التي تبكي. لا مقلتاك، والمصيبة عندما تكبر في هولها وغمراتها، تكبر كذلك في سجيتها وشمائلها، فلا تكون دموعاً مبهرجة، ولا دعاية مهرجة، سلمت العبقرية التي ينبع منها شعرك، ولا أقول سلمت الأحزان التي يعبق منها سحرك.

بدوي الجبل

● يا أبا سلمى أعطني يدك لأرى البيدر الذي كنت ألعب فيه قبل ثلاثين سنة، حولك الآن جيل لم يلمس في فلسطين إلا يدك، ومع ذلك فإنه أكثر قدرة على إعادة تكوينها بأدوات اللحم والدم. فلسطين تأتي وتذهب، ولكن فلسطين، فلسطيننا باقية في القصيدة التي يشربها طفل ولد الساعة في مخيم أو قرب سجن، فأسست له ذاكرة صافية، ومن دمنا إلى دمنا حدود الأرض. وفي الثورة يعرف كيف يحول الكلمات إلى خطوات، فيبني وطنه الخاص، المنتقى حجراً على حجر.

محمود درويش

● هذا الشاعر الذي استمر في عروق الدالية الفلسطينية، وظل ذلك الصوت المستمر.. والوجه المستمر.. واليد المستمرة.

استمر في الحبر والدم والجذر، استمر ذلك القبطان لتلك السفينة الفلسطينية التي كان الشعراء الفلسطينيون- بحّارتها - عبر مختلف الأجيال والمراحل.

آه.. من يقول إن الفلسطيني ليس له أثاث بيت؟.. وأبوسلمى يترك لنا طاولته في حيفا عام 1948، وكمال ناصر يترك لنا طاولته المثقوبة بالرصاص عام 73 .

آه.. هذا الشاعر الذي عرف كيف يصل الصراع الوطني بالصراع الطبقي، فكان بحق شاعر الوطن، وشاعر الطبقة العاملة معاً..

آه.. في يده عنقود وفوق صدره عنقود.. والدالية تستمر، وتواصل البروق خريرها في كأس الحبر الفلسطينية ويستمر أبوسلمى - القصيدة - الموقف الشعري والسياسي معاً.. التوأمان الخالدان أبداً.

معين بسيسو

● لقد شكَّل الشاعر عبدالكريم الكرمي ظاهرة حية في الشعر والنضال الفلسطينيين فهو فلسطين نفسها، وهو القضية بجميع مراحلها، وشعره هو فلسطين ذاتها أرضاً وشعباً وقضية، وقد وعى منذ البداية دور الشعب والجماهير كأساس في معركة الحرية.

د. مصطفى الفار

● وأذكر يا صديقي أنني صفقت لك في قصيدتك «الطائر الغريب» وكنت تشدو بها في النادي العربي بدمشق:

إنّه الشِّعْرُ كالأناسيِّ في الكَوْن   فَحَرْفٌ حرٌّ وحَرْفٌ ذَليل

وأشهد يا شاعري المحلق أنك حر الكلمة، غزير الحرف، وأن شعرك كنفسك قد تنزَّه عن الذل وتأبّى على الصَّغار. طيب الله أنفاسك وجمّل ديوان العرب بأبياتك، وحفظك للإبداع ولأخيك.

أكرم زعيتر

● إذا كانت فأس الموت قد بلغت أن تقطع زيتونة فلسطين فإن جذورها الضاربة في الأرض قد خلقت لنا كروماً من الزيتون، وإذا كانت قيثارة الحداء في يد قائد القافلة الأدبية الفلسطينية قد التوت، فإن أوتارها ما تقطعت ولا النغم العظيم لفلسطين الثورة قد كفّ عن الصعود إلى الأعالي ناشراً لهب الكلمات عن القضية التي هي لهب القضايا وتاريخ طويل من النضال الدامي. لقد عبر أبوسلمى دروب الحياة مكافحاً باسلاً بالكلمة والموقف بالشعر والنثر، وقد أغمض عينيه ومضى إلى دار الخلود، ونتلفت بعده من وحشة وأسى، فالشاعر الذي غنى دنيانا نصف قرن ونيفاً قد تدثر بالصمت، والصمت عدو الشعراء.

فيا أيها الكون انظر أي قلب بيننا توقف عن الخفقان، وأي فم انغلق دون الهتفة البكر التي أيقظت عالماً من الرؤى العظيمة.

د. نجاح العطار

ثمة علاقة وثيقة جمعت بين الشاعرين الكبيرين أبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي

● الشعر في جوهره لا يتوسل مناسبة للحضور، حتى لو نجحت بعض القصائد عن بعض المناسبات.. ولا يقبل الشعر وساطة بين مبدعه وقرائه بدعوى أهمية المبدع في الذاكرة التاريخية.. فتلك الأهمية من شؤون التاريخ أو الأخلاق.. وليس معنى ذلك إسقاط المغزى النبيل، أو الرسالة أو الفكرة المركزية التي نذر لها المبدع جهده دماً وحبراً.. ولكنه انتصار لشعرية الشعر، وإصغاء للنبض العميق المبَرَّأ من الزوائد والمرشَّح للبقاء.. وأن ما بقي من شعر أبي سلمى كاف ليبقيه إنساناً وشاعراً مما يصالح بين الهوية والإبداع.

أحمد دحبور

● إن أبا سلمى المعرق في الأدب أكثر مني بكثير، الذي أهّله طبعه ومزاجه لأن يكون شادياً عاطفياً، مولعاً، كقول ابن أبي ربيعة، بالجمال يتبعه حيث يكون متنقلاً بأشعاره من هوى إلى هوى، حملته الظروف والأحداث على أن يحيل تعلقه بالجمال دعوة إلى النضال وإلى أن يجعل من غنائياته ملاحم قتالية ومن شعره، لا ديوان غزل، بل كتاب ثورة وكفاح، لم تعد عاطفيته الغنائية هي موضوع شعره الرئيس، بل أصبحت أداة تعبير وحاملاً لنقمته وثورته، ولحنينه وتفجُّعه، ولصيحاته الموقظة والمؤلِّبة، المذكِّرة بما كان والمشيرة إلى ما هو كائن والمنذرة بما سيكون، في قضية وطنه فلسطين، وطنه الذي عاصره مهدداً بالاستلاب ثم استُلِب، ولا يزال مستلباً.

د. عبدالسلام العجيلي

الهوامش:

1- مدائن فلسطين - نبيل خالد الأغا/المؤسسة العربية للدراسات والنشر/1993/بيروت.
2- من أعلام الفكر والأدب في فلسطين/يعقوب العودات/البدوي الملثم/عمان/1976.
3- المرجع السابق.
4- الشاعر أبوسلمى أديباً وإنساناً/د. مصطفى الفار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت 1985.
5- حسني جرار/عبدالكريم الكرمي (أبوسلمى) الشبكة العنكبوتية 2010/7/4م.
6- قراءة في كتاب: ديوان أبي سلمى/عبدالكريم الكرمي/أحمد دحبور/الشبكة العنكبوتية.
7- الشاعر أبو سلمى: أديبا وانسانا، مرجع سابق
8- مجلة الباحث - تموز - يوليو - 1982
9- ديوان ابراهيم - دار الشرق الجديد - ط1. بيروت 1955
10- مواقع مختلفة على الشبكة العنكبوتية